

تشظيات الدستوبيا : المدينة الشيطانية في شعر احمد مطر

علياء سعدي الجبوري

dr.alyaasadi@uomustansiriya.edu.iq

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

توطئة :

الدستوبيا في أبسط مفاهيماتها : قانون أخوة يوسف ، "فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان (عبدالملك بلا تاريخ)". ظل الأدب بالرغم من تعدد أشكاله يحافظ على صورته المثالية لقرون منعت من استيلاء أشكال مغايرة للمدينة اليوتوبية ، إذ بقي إيفاق هذه المدينة الفاضلة يعزف على كل الموضوعات والأشكال والرؤى ، منذ عصر أفلاطون ، الذي رسم وجه المدينة المثلى ووصولاً إلى الفارابي ، الذي وظف مفهوم أفلاطون في سياق إسلامي . (سمعان ١٩٨٧ ، ١٢) كما سار كثير من الفلاسفة والأدباء في خلق عوالم مثالية متخيلة ، تتحقق عبر فكرة اللامكان ، بعد التراجع الكبير لأحلامهم في واقعهم المعيش ، "كون الأدب اليوتوبي يسعى إلى إثبات مثاليته على الرغم مما تعانيه البشرية من حروب وقتل وفوضى (سمعان ١٩٨٧ ، ١٣) . ومع العزف على أوتار المدينة الفاضلة في الأعمال الأدبية ، والذي بدأ نمطاً نسقياً في الالتزام ، جاء اتجاه معارض وجهه سهام التملل من الواقع ، محاولاً محور زخرفته لينطق بما فيه ، فتلبدت اليوتوبيا حتى تقلصت تدريجياً ، إذ إنها قد بثت "روح الخوف والقلق حتى [عند] انصار العالم المثالي " . وبهذا قد ولدت الدستوبيا من رحم اليوتوبيا ، فكانت أشبه بصرخة احتجاج زعزعت أركان العوالم المثالية . الكلمات المفتاحية : تشظيات الدستوبيا ، المدينة الشيطانية ، شعر احمد مطر

Fragments of Dystopia: The Demonic City in the Poetry of Ahmed Matar

Alia Saadi Al-Jubouri

College of Education / Al-Mustansiriya University

Abstract :

Dystopia, in its simplest terms, is like the law of the brothers of Joseph: "Man is a wolf to his fellow man".

Despite its diverse forms, literature has maintained its idealized image for centuries, preventing the emergence of alternative forms of the utopian city. The rhythm of this ideal city has continued to resonate across all themes, forms, and visions, from the time of Plato, who depicted the face of the perfect city, to Al-Farabi, who employed Plato's concept within an Islamic context. Many philosophers and writers have also embarked on creating imagined ideal worlds, realized through the concept of nowhere, after their dreams were severely diminished by their lived reality. This is because utopian literature seeks to prove its idealism despite the wars, killings, and chaos that humanity suffers.

While the theme of the ideal city was explored in literary works, appearing as a consistent pattern of commitment, an opposing trend emerged, directing its discontent with reality and attempting to strip away its embellishments to reveal its true nature. Thus, utopia gradually faded and diminished, as it instilled "a spirit of fear and anxiety even among the proponents of the ideal world." In this way, dystopia was born from the womb of utopia, becoming a cry of protest that shook the foundations of ideal worlds.

Keywords: Dystopian fragments, the diabolical city, poetry of Ahmed Matar

ودستوبيا : "أدب المدينة الفاسدة، فهو عالم ليس للخير فيه مكان، يحكمه الشر المطلق".

ويتتبع لغوي دستوبيا باللغة اليونانية : المكان الخبيث ،وهي عكس المكان الفاضل وأدب الدستوبيا هو احد المذاهب الأدبية القديمة مثل ادب الطغيان ،وأدب المقاومة. "وأول من اشار الى مفهوم الدستوبيا هو المفكر الانكليزي (جيرمي بينثام) في حديثه عن الاماكن الفاسدة او السيئة ،لكنه استخدم تسمية (كاكو توبيا) : اي المكان المتخيل الاقصد.

برزت دستوبيا رد فعل طبيعي في الادب العالمي بصورة عامة والعربي على الخصوص ،بعد فشل الثورات للاستعانة بها في تفسير الواقع ومواجهته .

وربما جاءت الدستوبيا نوعا من المحاكمة لنمط ادبي راكد ،فتوالت الكتابات الادبية المفصلة لها في الغرب، والتي غدت اكثر رواجاً وتتصدر قوائم المبيعات.

وكان تلفتي الى شعر احمد مطر ،كونه حقلا فيه من بذور الدستوبيا الكثير والتي سقيت بتجربة شخصية حتى صارت اشجارا تحمل ثمارا ابداع الشاعر في تشكيلها .

واحمد مطر جريء في اختراق الفضاءات الخفية ،ورصد عيوب الواقع ،حتى كان شعره ضاحكا بالتنوع والمساكسة .فهو قد بدأ بداية بيضاء ،فكتابات فضاء مفتوح لم تلتزم بالمألوف والسائد، مستندا على قاعدة نشأته :اذ كان الابن الرابع بين عشرة اخوة ،وعانى من سطوة الفقر ،كما انه اخفق في دراسته ،فلجأ الى الكتاب ،لينزلق بعده الى السياسة ،فكتب قصائد سياسية ،في محاولة لصب دواخله في قوالب السياسة ،فسجن لمرات عدة ،وقُتل اثنان من اخوته في حادثتين مختلفتين،فضلا عن مقتل صديقه الفنان ناجي العلي في لندن بمسدس كاتم (مطر ٢٠٢٥).

واحمد مطر الشاعر مختلف ،لم يعتمد على نظام تأمين العلاقات وتأليه الواقع ،اذ جاء شعره عبارة عن تنقيب يتجاوز المعطيات ،من اجل فتح جديد غير مخطط له ،يخلق الدهشة ويعري الواقع ،فصنع من ظرفه تحديا الامر الذي افرز معطى يكسر النمط القالبي ،ويحقق وجودا استثنائيا للشاعر بفرادة خطابية ،والتف بعدها متشبعين ،حتى تفرعت عنه نماذج اخرى خرجت من معطفه.

والقى احمد مطر في سن مبكرة من عمره نفسه في دائرة النار (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ١٦٧) . اذ لم تطاوعه نفسه على الصمت ،ولا على ارتداء ثياب العرس في المأتم ،فاضططر الى مغادرة العراق الى الكويت، هاربا من مطاردة السلطة والشاعر كان لا يؤمن بالمشهد الثقافي العربي لما فيه من الكذب والنفاق والمجاملات (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ١٣). وهو قد صاغ لنفسه هوية تعريفية يعرف فيها نفسه بمفردات يقو :

ارتباطي : هو ارتباط بقضية كل انسان ضعيف ومستلب

حالي الاجتماعية: رب بيت

شغلي : كنس العروش الفاسدة

مكسبي : احترامي لذاتي

مساراتي: ارباح اصبحت لكثرتها اغنى الاغنياء ،ففي كل صباح استيقظ اجدني معي احمد الله (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٨).

وكان لابد للشاعر من وعي استثنائي يمكنه من ان يصبح مرآة لنقد المجتمع والسياسة، اذ تلمس الحافة الدقيقة من الواقع ،واستطاع ان يحوله الى شعر صرخوي رافض، فالواقع السياسي العربي برأيه هو " ملعب امريكي، فيه اثنان وعشرون لاعبا، فريق منهم في الجهة الشرقية، وفريق في الجهة الغربية، يختلفون ويتناهرون على متابعة الكرة، ولكنهم جميعا يتفقون على قاعدة لعب واحدة " (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٩).

اما الواقع الاسلامي عنده فهو: "محكمة تضع القرآن في قفص الاتهام ،اما الواقع السياسي العالمي :فهو مسرح يعرض نصا مؤلفته ومخرجته وممثلته امريكا (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ١٦٧).

كل هذا دفع الشاعر ان ينهض بعملية تبني القوانين اللاجمالية ،فتأسست هويته الابداعية، التي رفضت السير في مضمار المدن الفاضلة وتزيين الواقع بما ليس فيه، حتى وصل الى مصداقية صادمة حفظته من التلاشي في الادب الممنهج.

ونظرا لكثرة قراءتي لنتاج احمد مطر، وجدت ان اصبه في قوالب الدستوبيا التي جاءت من اجتهادي، متوافقة مع صرخات الشاعر. وقد قسمت البحث الى مباحث :

المبحث الاول : مظهرات الدستوبيا في شعر احمد مطر

المبحث الثاني : ترسيمات المدينة الدستوبية

المبحث الثالث : شخصيات دستوبية

المبحث الاول : مظهرات الدستوبيا في شعر احمد مطر :

يجتهد المبحث هذا في الكشف عن تمثيل الدستوبيا في شعر احمد مطر، نتيجة ظروفه، والسعي لتجسيدها كتابيا، والاقتراب المشاكس من مناطقها الساخنة، الامر الذي ادى الى ابراز خصوصية عمل، والكشف عن اسرار وخفايا محيطية، فكانت هذه الوحدات المتناقضة اشعاعا قابلا للانسجام تتألف في فضاء الحرية الذي يحتويه النص " (جعفر ١٩٩٨، ٣).

وقد عبر الشاعر عن دستوبيا الخوف، فخلق في قصيدة (كلب الوالي) مفارقة حققت دهشة في قلب ميزان العدالة، فكلب الوالي هو من تسم بعد ان قام بعض الشاعر . يقول :

كلب والينا المعظم /عضني اليوم ومات/فدعاني حارس الامن لاعدم /عندما اثبت تقرير الوفاة /ان كلب السيد الوالي تسم (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٩١) .

مفتتح النص بقلب موازين القراءة (الكلب عضه ومات) فتتحقق وقفة قرائية لمحاولة الفهم، يسترسل الشاعر بمد النص بنسخ الدهشة (فدعاني حارس الامن) ليبلغه ان (كلب السيد الوالي تسم) نتيجة عضه الكلب للشاعر . عندها يرضخ الشاعر الى نتيجة تقرير الوفاة، فلم يستطع ان يعترض وعندما روى الحكاية التزم اللفظ المؤدب (كلب والينا المعظم)، عندها قبل الاعداد راضا.

ولاحد مطر طاقات استشرافية، وظفها عبر سلاح السخرية لرسم مدينة دستوبية، يحاول من خلالها التوازن لمواجهة الحقيقة، بابرار عيوب المدينة غير الفاضلة، فكان التركيز على مواد اسست هيكلياً دستوبيا . ومن تلك المواد : القمع والترهيب، اذ استغل الشاعر هذه المادة بالاقتراب المشاكس، وتسليط الضوء على اشتغالها واقعيًا . وهذا ماظهرته قصيدة (السلطان الرجيم):

قلت له كفاك يا شيطاني /فإن مالفيتة كفاني /اياك ان تحفر

لي /مقبرتي بمعمل الاوزان/فاطرق الشيطان ثم اندفعت/

في صدره حرارة الايمان /وقبل ان يوحى لي قصيدتي /

خط على قريحتي /اعوذ بالله من السلطان (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٨٦)

الشاعر حبيب دستوبيا، التي فاقت كل قوانين الانحطاط فالاستثناء يحرك المشهد السوري، اذ يظهر الشيطان فيها احسن السيئين، اذ جاءت محاولاته الخيرة في ان يحرك قريحة الشاعر بتحريضه على كتابة قصيدة جديدة، غير انها في عرف دستوبيا مقبرة تحفر بمعمل الاوزان، فتتعمق صورة الاستلاب والقمع، ويتجسد الشيطان فيها ملاكا يستعيز من شر السلطان .

كما ان مادة القمع والترهيب تبرز القوانين الجائرة، التي تصدر الحريات . يقول في قصيدة (القضاء):

نظر القاضي طويلا في ملفات القضية/بهود وروية /ثم لما

ادبر الشك ووافاه اليقين /اصدر الحكم بأن يعدم شنقا/عبرة

للمجرمين/...../اعدم اليوم صبي/عمره سبع سنين (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٢١٣)

ابتعدت الصورة في النص عن التفاصيل، فهي صورة مباشرة للقضاء الدستوبي، فالقاضي الحكيم (ظاهريا)، يقربأبهود وروية ملفات المتهم، حتى توصل لحكم (عادل) باعدام طفل عمره سبع سنوات، وهنا تكون قاعدة الدستوبية رخوة هشة يحكمها اللاقانون.

اما الاعلام فهو موجه، يرسم قانون دستوبيا بشكل احترافي. يقول في قصيدة (قلة ادب):

قرأت في القرآن/تبت يدا ابي لهب /فأعلنت وسائل الاذعان/

إن السكوت من ذهب/احببت فقري لم ازل اتلو /وتب / ما

اغنى عنه ماله وماكسب/ فصوردت حنجرتي / بجرم قلة

الادب / وصورد القرآن/ لانه حرضني على الشغب (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٤٣)

من المفترض ان يُمنح النصّ ابعادا استعلائية مستمدة من سورة المسد ، ترسم نهاية طاعية ، غير ان السورة وظفت بدلالة عكسية ، فالشاعر بدأ بتلاوة (تبت يدا أبي لهب) لينذر من قبل وسائل الاعلام (الاذعان) بأن الخنوع والسكوت لا بديل له ، ومازال الشاعر يتلو السورة متنازلا عن الذهب (احببت فقري) ، وهنا لابد من مصادرة حريته المتمثلة ببسط افعاله (صوته) ، ثم صودر القرآن الكريم اقدس المقدسات ، فتموت كل فضيلة لانها تخالف نهج الاعلام الموجه .

ومن وسائل القمع الاعتقال . يقول الشاعر في قصيدة (ثورة الطين):

وضعوني في اناء / ثم قالوا لي تأقلم / وانا لست بماء / انا

من طين السماء / واذا ضاقت انائي بنموي / يتحطم (مطر ، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢ ، ٢٥٠)

يقوم النص على تحديد حركة الناص (الطين) بأن وضعوه في اناء واجبروه على التأقلم ، فحاول الاعتراض بأن اصله من طين لاماء ، فليس بمقدوره ان يأخذ شكل الاناء الذي يحتويه ، فهو قد حذرهم من عواقب تأقلمه لاختلاف طبيعته الطينية ، اذ انه مستقبلا سينمو ويكسر الاناء ، دلالة على رفضه الاعتقال الذي لا يوافق طبيعته .

ومن هيكليات المدينة الدستورية مصادرة الحريات الفردية : كان احمد مطر جريئاً في التعامل مع موضوعات كهذه ، فكشفت قصائده عن كمية استلاب حقوق تجسدت عبر ادوات : كالرقابة ، والدعاية ، والقمع والعقاب ، فلم يعلن الشاعر رفضه بكلمات ايحائية خجولة ، انما بقصائد مباشرة تدن صدام ونظامه ، حتى لاحقته السلطات ، فاضطر الى توديع الوطن والتوجه الى الكويت . فمصادرة القلم تعد اشرس المصادرات للحرية الفردية (مطر ، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢ ، ٥) . يقول في قصيدة (وظيفة قلم) :

عندي قلم / ممثلي يبحث عن دفتر / والدفتر يبحث عن

شعر / والشعر باعماقي مضمر / وضميري يبحث عن

امن / والامن مقيم في المخفر / والمخفر يبحث عن قلم /

عندي قلم / وقع ياكلب على المحضر (مطر ، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢ ، ١١٠)

مفتتح النص وانغلاقه يكمن في مشكلة تتلخص في (عندي قلم) ، فاستعمال القلم يمر بمنظومة تسلسلية ، فالقلم بطبيعة الحال يبحث عن دفتر ، والدفتر يريد ما يستحق ان يكتب به كالشعر مثلاً ، والشعر يكحه ضمير يرفض الاستلاب ، والضمير يحتاج الى تفرغ مافي جعبته عندما يشعر بالامن ، وهنا تتحول دلالة الامن الى ضدها ، فهو مخفر يبحث عن قلم معارض حر ليقمعه ، عندها يتجرد الشاعر من انسانيته بسبب (القلم) في عرف حكومته حتى ينعت بالكلب .

والبحث عن الذات كانت ردة فعل الشاعر عن مصادرة حريته ، فخلاصه بأن يتشكل بهيئة غير انسانية ، لعلها تساعده في تحمل الضغوطات ، فهو الان يريد ان يكون حماراً . يقول في قصيدة (البحث عن الذات) :

ايها الحمار الطيب / اريد ان انهق مثلك / وان انتقل دون

هوية او جواز سفر مثلك (مطر ، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢ ، ١٦٢)

ويستمر النص حتى يتوصل الحمار الى نتيجة ، ان الشاعر ليس بحمار ، بل اكثر حمورية : (لعلك بغل) . وهنا راح الشاعر يتوسل لعله يصبح بغلاً . يقول :

ايها البغل الصنديد / اريد ان اكون قويا مثلك / لكي استطيع

تحمل كل هذا القهر / واريد ان اكون بليدا مثلك / لكي لا

اتألم مما اراه في هذا الوطن / قال البغل : / كن من يمنك ؟ /

- تمنعني ذلتي وشدة طاعتي / - اذن انت لست بغلاً - وماذا

اكون ؟ / اعتقد انك كلب (مطر ، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢ ، ٩١)

حتى يصل الى البحر ويتحاوران ، فيقتنع بنصيحة البحر :

لماذا لا تشنق نفسك ؟ ومن يعطيني ثمن الحبل / لا تملك حبلاً ؟

اخنق نفسك بثيابك / الا تراني عارياً ايها البحر العظيم /

اسمع لم تبق الا طريقة واحدة / انها طريقة مجانية وسهلة /

لكنها ستجعل انتحارك مدوياً / ارجوك ايها البحر العظيم /

قل لي بسرعة/ ماهي هذه الطريقة / -ابق حياً (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ١٦٤-١٦٥)

يمارس الواقع المتشدد سطوته عبر مرايا مصغرة، تضيق الحيز الرؤيوي والفكري، فكلما اراد الشاعر مسح انسانيته للخلاص من واقعه تنكمش الصورة لتصغر، فالشاعر اراد ان الحصول على بعض الحرية بالتحول الى (حمار) ، ليكشف له الحمار سرا بأنه (اكثر حمورية منه) فلا يصلح الا ان يكون بغلا . عندها يتملق الشاعر البغل بلفظة (الصنديد) ، محاولا ان يصل الى بلادة البغل ، وهنا يطرح البغل سؤالاً متعجباً : ومن يمنعك ؟ فتكون الاجابة صادمة للبغل ، تمنعني ذلتي وشدة طاعتي ، فيخصم البغل الاجابة بأن الشاعر ادنى مرتبة منه فهو قد يكون كلبا ، وتستمر محاولة الشاعر للتشكل محاولة لاستبدال انسانيته ، حتى يصل الى تلاشي الشاعر الذي وجد ان انسانيته ادنى من ادنى موجودات الكون ، فيفتتح عليه البحر حلا لازمته، بأن يتشكل تشكلا هداما اقسى من الموت ، وهو البقاء حيا . وعندها تقفل الصورة بسوداوية بحياة اقسى من الموت نفسه .

ومن مواصفات قتلة الحريات في الوطن ، ان تكون هذه الشخصيات لها كاريزما خاصة ، يغلفها الطابع الديني . يقول في قصيدة (حجة سخيفة) :

بيني وبين قاتلي حكاية طريفة/ فقبل ان يطعنني/ حلفني بالكعبة الشريفة / ان اطعن السيف انا بجنتي / فهو عجوز

طاعن / وكفه ضعيفة / حلفني ان احبس الدماء / عن ثيابه

النظيفة / فهو عجوز مؤمن / سوف يصلي بعدما / يفرغ من

تأدية الوظيفة / شكوته لحضرة الخليفة / فردّ شكواي / لان حجتني سخيفة

يستخدم الشاعر كامرتين في تصوير الواقعة ، تعمل الاولى بفعالية حفر وخرق ، اذ تصور الداخل ، فتفتحه على الخارج ، فما كان من الداخل هو جريمة قتل متعمدة بوجود اداة الجريمة الخاصة بالعجوز ، والتحرير بدفع الشاعر ان يقتل نفسه بنفسه بطريقة غسل الدماغ . اما كاميرا الخارج ، فتبدأ التقاطاتها من العنوان : (حجة سخيفة) اذ ردت الدعوة على المقتول لكون العجوز لم يتدخل فيها لضعفه ولتقواه . وهذا مظهر للعيان .

ومن هيكل المدينة الدستورية ايضا غسل الادمغة ، التي هي انتزاع هوية الفرد ، واستبدالها بهوية موجهة ، تخدم جهة معينة ، وغسيل الادمغة "مزيج قاتل جديد من الايديولوجية، والتكنولوجيا، والطب ، والعلوم النفسية " (غسل الدماغ ، تاريخ جديد للسيطرة على الفكر ، دانيال بيك ، 2010، wellcomellection.org).

١. وصب غسيل الادمغة في بداية الخمسينيات والستينيات في القرن العشرين في ترويض وعلاج اولئك الذين يفترض من انهم يعانون من اضطرابات عقلية حادة ومزمنة ، من خلال استئصال الفص الجبهي . بعدها تطور علاج حالات ذهنية مطيعة او متحمسة للدولة غسل الدماغ ، تاريخ جديد للسيطرة على الفكر ، دانيال بيك ، wellcomellection.org.

والشاعر احمد مطر سجل خسارته ارباحا بعد ان رفض غسل دماغه فقال : (خسارتي اصبحت لكثرتها اغنى الاغنياء ، ففي كل صباح استيقظ اجدني ، فاجدني معي فاحمد الله ، ثم ابدأ بتفقد كنوزي : ادق قلبي الجريح ، فتد كبريائي انا هنا . اتفحص جيبتي المتقوب ، تضحك انا ملي لا تتعب نفسك . لم اقبض صكا من سلطان ، اتمس روعي تبتسم الامها . اطمئن ، لم يستطيعوا اغتصابي ، افتح كتابي يلهث في وجهي قائلا : صادروني اليوم الفلاني ، وطول جولتي يسلميني ضميري بدندنة لا تنقطع لم نمدح شيطاننا (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢ ، ٩) . يقول الشاعر في قصيدة (اعترافات كذاب) :

قلت لكم : إنّ فمي / في احرفي مذاب / لان كل كلمة مدفوعة

الحساب / لدى الجهات الحاكمة / استغفر الله فما اكدبني / فكل

ما في الامر ان الانظمة / بما اقول مغرمة / وانها قد قبلتني /

في فمي / فقطعت لي شفتي / من شدة الاعجاب (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢ ، ٢٢٤)

الشعر هو منطقة ملغومة لدى السلطات ، وان اي كلمة تخرج عن الخط الاقوي ستهلك قائلها ، غير ان الخوف في النص محرك دينامي فعال ، اذ استطاع اقناع الشاعر بأيديولوجية جديدة ، فكان العنوان انسحابا موقفيا ، وقرارا بكذب سيكون ، لهذا بدا الشاعر

اعترافاته ، فلم يملك من شدة كذبه الا ان يستغفر (استغفر الله فما اكذبني) .لهذا كان قطع الشفاة نسقية تكون قصديتها شدة الاعجاب لا العقاب .

وقد ضلل الشعب عن حقائق ،اذ خلقت الدولة له حكيمًا هو (عبد الذات) ودوره يكمن في غسل ادمغة الشعب بالثبيط .يقول الشاعر في قصيدة (القرصان):

بنينا من ضحايا امسنا جسرا /وقدما ضحايا يومنا نذرا /لنلفى في غد نصرا /ويممنا الى المسرى /وكدنا نبلغ المسرى /ولكن قام
عبدالذات يدعو قائلا :صبرا /فالقينا بباب الصبر قتلانا وقلنا انه ادرى (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٢٣٢)
الشعب سلّم القيادة من دون ادنى تفكير لعبد الذات وهو رمز لكل متفرد بالقرار لايهمه سوى نفسه ،فضحايا الامس ليسوا الا جسور
يعبر عليه ضحايا اليوم،الذين يطمحون الى العلا نصرا ،غير ان الثقة العمياء بعبد الذات اوقفت مسراهم ،بكلمة واحدة (صبرا)،التي
قطعت الطريق على انتصارهم ،فيتحول الضحايا الى لاشيء على باب الصبر ،ومن بقي اقتنع باستبدال كلمة النصر بالصبر بزعمهم
ان عبد الذات هو ادرى بمصلحتهم .

المبحث الثاني

ترسيمات المدينة الدستوبية :

في بعض الاحيان يلجأ احمد مطر الى ترسيم المدينة الدستوبية وفق خاصية الدائرة الضيقة،محددة بازمان مختلفة ،مكهربة
بشحنات شعورية ،متنوعة الامكنة القائمة بالشعوروالالوان، مؤنثة باشياء محددة الادوات .

وهي شد بين ترسيم فنتازي تعتمد هيكلية غرائبية او عجائبية ،وبين دستوبيا واقعية ،تمترجان معا لترسم دستوبيا احمد مطر .
وللمدينة الدستوبية آليات تشاكلية رسمت معالمها :

الزمكانية الدستوبية:الزمن فيها دوري ،فهو يدور في حلقة مفرغة ،اذ لاتراجع ولاتقدم ،او قد يكون زمنا فانتازيا تحفه الدهشة
الغرائبية والعجائبية .

اما الاماكن فتنشكّل وفقا لرؤية الشاعر ، التي استطاعت ان تتشكل وفقا لوجدان الشاعر .فالزمان والمكان لا يخضعان الى ايقاعية
الواقع في اغلب قصائد احمد مطر .يقول الشاعر :

اينع الراس "وطلّاع الثنايا " / وضع اليوم العمامة /وحده
الانسان والكل مطايا /لاتقل شيئا ولاتسكت امامه /إنّ في
النطق الندامة/انت في الحاليتين مشبوه /فتب من جنحة

العيش كإنسان /وعش مثل النعامة (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٣٢١)

يتهيكل المكان مشدودا للشعور السوداوي الناتج عن ضغط الخارج ،باستحضار زمان الحجاج الدموي يوم تولى على الكوفة فقال
مستشهدا بقول سُحيم بن وثيل الشاعر المخضرم

انا ابن جلا وطلّاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني (ويكيبيديا،،2010 ar.m.wikipedia.org)

استجلاب الحجاج بزمكانيته هو محرق النص ،فالتناص معه يخلق جوا من الازلال والقهر للمخاطب ،(انا ابن جلا وطلّاع
الثنايا)فهو ينصب نفسه سيدا بالقوة ،ليشكل مفتتح احمد مطر (اينع الراس) نصا دائريا ،بدأ من النهاية بنضوج الرؤوس لتحصد
اذا ما خالفت الامر (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ١٤٨)

وهنا فإن الحجاج هو فقط من يرتقي الى مرتبة الانسان والكل (مطايا)، فلا بد من السكون بين الضدين (لاتقل /لاتصمت) لان
في كليهما الندامة ،لذا فالانسان في زمكانية الحجاج(جنحة) ،وافضل طريقة للبقاء حيا ان يتحول الى حيوان النعامة التي تدفن
راسها بالتراب اذا ما خافت .

والزمكانية هلامية تشي بالضبابية والرخاوة .وهذا جليّ في قصيدة على باب الشعر :

حين وقفت بباب الشعر/ فتش احلامي الحراس /امروني ان اخلع راسي /واريق بقايا الاحساس /ثم دعوني ان اكتب شعرا

للناس / فخلعت نعلي بالباب /ثم دعوني وقلت خلعت

الاخطر / يا حراس/ هذا النعل يدوس /ولكن هذا الراس

يداس (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٣٠٣)

تتراقص الزمكانية في ظل سوداوية الشعور، ليظهر المكان (باب الشعر) زلزلة توصل من يدخلها - الشاعر حصرا - الى مقصلة (الزع راسي) عندها يموت الاحساس، فتبدأ مرحلة كتابة شعرية جديدة، يصبح فيها (النعال) الذي يدوس اعلى درجة من الراس الذي يداس .

في المدينة الدستوبية يتخيل الشاعر زمكانية دورية، تدور في حلقة مفرغة، تحجم القرآن الكريم / دستور الحياة . يقول، في قصيدة (الخلاصة) :

آه لو لم يحفظ الله كتابه / لتولته الرقابة / ومحت كل كلام /
يغضب الوالي الرجيم / ولا مسمى مجمل الذكر الحكيم / خمس
كلمات / كما يسمح قانون الكتابة / هي / قرآن كريم / صدق
الله العظيم

اطمأن الشاعر الى الاية القرآنية الكريمة " انه لقرآن كريم في لوح محفوظ " . غير ان ما يتوافق مع مفهومه للمدينة الدستوبية هو تحجيم القرآن الكريم ، ف (الرقابة) في تلك المدينة لها سلطة اعلى ، تمنع ما يغضب الوالي وان كان قرانا . عندها يتكون القرآن القرآن من عبارتين فقط (قرآن كريم / صدق الله العظيم) ، وبذلك لا اهمية لمكان وزمان واشخاص بعد ان يلغى الدستور ويتحول الكون الى مساحة بوهيمية .

ولجأ الشاعر الى زمكانية غرائبية ، تسبح في تيار فانتازي . يقول في قصيدة (الدولة) :

قالت خبير / شبران ولا تطلب اكثر / لا تطمع في وطن اكبر /
هذا يكفي / الشرطة في الشبر الايمن / والمسلخ في الشبر
الايسر / انا اعطيناك المخفر / فتفرغ لحماس وانحر /

ان القتل على ايديك سيغدو ايسر (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٣٥٧)

يرسم النص زمكانية غرائبية ، فالدولة مساحتها (شبران) . ناطقتها الرسمية هي خبير رمز الرذيلة والنفاق والغدر ، دولة من شبرين . جانبها الايمن (الشرطة) ، وفي جانبها الايسر (المسلخ) ، جانبين من الرعب والموت ، ليتناص النص مع الاية القرآنية الكريمة التي جاءت على لسان (خبير) : " انا اعطيناك الكوثر " ليبادل النص لفظيا بين الكوثر والمخفر دلالة الانحسار والتقييد ، واستبدال عبارة (صلي لربك وانحر) بعمارة (تفرغ لحماس وانحر) وهو استبدال الروحاني بالسيطاني ، فبدل الصلاة وذبح القرابين لله تعالى ، يكون التفرغ لحركة حماس الفلسطينية لينحرون كما الشاة ، عندها لا بد من خلق اطار اقناعي من قبل (خبير) بالقتل المبرر ، اذ سيكون ايسر . وهو جو دستوبي زمكانيته مؤطرة باطار ادهاشي .

والزمكانية في قصيدة (مواطن نموذجي) عجائبية ، تتقطع عن الايديولوجية النسقية :

يا ايها الجلال ابعده عن يدي / هذا الصفد / ففي يدي لم تبق
يد / ولم تعد في جسدي روح / ولم يبق جسد / كيس من الجلد
انا / فيه عظام ونكد

الشاعر في النص ذو حضور ملغي ، فلم تعد للاصفاة اهمية بذوي الجسد ، وانتفاء وجود اليد ، ليتحول الشاعر الى (كيس من الجلد) فيه عظام ، دلالة اللاشيء وان كان على قيد الحياة ، اذ اختفت الروح (المعنوية) ، وانطفأت الطاقة ، ليحيا فقط الشعور بالنكد والطاقة السلبية . وبهذا انقطع المشهد عن المؤلف ، ليسبح في عجائبية الاشياء .

المبحث الثالث

الشخصيات الدستوبية :

نتبين الشخصيات الدستوبية بحسب قاعدة النشأة والظروف، فكل الشخصيات الدستوبية هي شخصيات لاسوية، لديها اضطرابات سلوكية تبدأ معها وراثيا وبالتحصيل المكتسب،

فالبلبل هنا هو بطل مضاد، ذو عيوب اخلاقية، وهو المحور الكاسر للنمطية، العاكس لصراعاته الداخلية.

وليس من شأن هذه الشخصية ان ترى عيوبها، ولا ان تُسأل عن افعالها، ولا تبرهن صدق حديثها (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٣٥٧).

ومن تلك التصدعات رسم احمد مطر شخصية التوكسك او السامة : وهي ذات ابعاد سلبية مدمرة لمن حولها، اذ يميل التوكسيك الى التلاعب بمشاعر الآخرين، فقد يكون قاصدا، او ان يمارس سلوكياته من دون ادراك، فيسبب للمقابل توترا وضغطا نفسيا (الشخصيات التوكسيك في حياتنا كيفية فهمها والتعامل معها، 2017، alwatanner.net).

يقول الشاعر في قصيدة (عزف على القانون):

يشتمني / ويدعي ان سكوتي / معطن عن ضعفه / يلطمني / ويدعي ان فمي قام بلطم كفه / يطعنني / ويدعي ان دمي لوث
حد سيفه (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ١٩٠).

من دون الايحاء باحتمال ظهور مشكلة، حاول الطرف الثاني ان يتلاعب من خلال قلب الحقائق الى ضدها، فالشاعر متهم بأن (سكوتته) اضعف الطرف الاخر، وان (لطمه) كان صفة من الفم على كف الطرف الاخر، ثم ان (طعنه) جاء ليلوث حد سيف الطرف الاخر، وهذا هو فعلا (العزف على قانون جديد) بتقويض آلة القانون، واستبدالها دلاليا بقانون التوكسيك المتلاعب، فهو قانون قلب الطاولة وجزم الشاعر.

ومن افرازات الدستوبية: الشخصية : السايكو باثية : وهي شخصية ذات سلوك عدواني، وغالبا ماتكون جذابة وساحرة في البداية، يعنليها الغرور والثقة، بعدها تظهر سلوكا مدمر (الشخصية السيكيوباتية الأعراض وطرق التعامل، سارة وائل، alyom7.com 2018). يقول الشاعر في قصيدة (حُجة سخيفة):

بيني وبين قاتلي / حكاية طريفة / فقبل ان يطعنني / حلفني
بالكعبة الشريفة / ان اطعن السيف انا بجثتي / فهو عجوز
طاعن / وكفه ضعيفة / حلفني ان احبس الدماء / عن ثيابه
النظيفة / فهو عجوز مؤمن / سوف يصلي بعدما / يفرغ من

تأدية الوظيفة (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ١٩٤)

يحمل النص كوميديا سوداء، فالقتل العمد اصبح طرفة وله مبررات : فالقاتل (عجوز طاعن) يتمتع بحكمة، اقنعت الشاعر بأن يجرم في حق نفسه، فالقاتل شخصية مقنعة استطاعت قلب الثوابت بغسل الدماغ، فالقاتل الطاعن في السن متدين حلفه بالكعبة الشريفة وهذا امر لايجوز مخالفته بأن يطعن نفسه، والمبرر المقنع ان (كفه ضعيفة)، ولزيادة اقناعه بالموضوع اردف القسم الاول بآخر (ان احبس الدماء عن ثيابه النظيفة) ليستطيع ان يصلي وهو امر يثير التعاطف. عندها امتثل الشاعر الى مقايسة تبدو منطقية جدا من غير ان يفكر بالاعتراض.

ومن الشخصيات الدستوبية الشخصية (الالستركراولي) وهي شخصية مأخوذة من صوفي بريطاني هو الستر كراولي، كان كاتباً وشاعراً وعالماً في علوم الشعر،... اسس فلسفة ثيلياما، التي تمزج بين الفلسفة والباطنية والسحر : وهي شخصية خبيثة وشيطانية، اشتهرت بالسمعة السيئة، وقد وصفته الصحافة، باخبث رجل في العالم. وربما رسم احمد مطر ملامحها في قصيدة (تقاؤل):

دق بابي كائن يحمل اغلال العبيد / بشع / في فمه عدوى /
وفي كفه نعي / ويعينيه وعيد / رأسه ما بين رجليه / ورجلاه

دماء / وذراعه صديد (مطر، اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة ٢٠١٢، ٤٧٣)

بنية العنوان خادعة، توجه المتلقي الى مجال عكسي (تفاؤل)، اما مفتتح النص فيفند العنوان، اذ ان الطارق لا يطرق بخير، فهو كائن (بشع) دلالة الغرابة والقلق، ومما زاد القلق حملة ل(اغلال العبيد) الامر الذي يثير الاستغراب والريبة، وبالتلقت للتفصيلات (في فمه عدوى)، (في كفه نعي)، (وبعينيه وعيد) يصبح المشهد انغلاقيا، فسوف يفتح منزل الشاعر بما يحمله من تفصيلات مربية، عندها تلقت عين الشاعر الى ان هذا الكائن منهار تماما (راسه ما بين رجليه)، بعد ان جلس من التعب والالم، وهذا ما اكدته تفصيلا (رجلاه دماء). وعندها جثم في مكانه فهو لن يتحرك. لتسدل الستارة على الصديد، الذي اغرق المشهد كله فلامفر منه بعد ان اثقل الشاعر نفسيا بالخوف والتوتر

هكذا كانت الدستوبيا مسرحا لصراعات نفسية وصراعات خارجية ولدت سلبيات، خلقت فجوة بينها وبين اليوتوبيا، فاصبحت النقيض الذي حرك ركودية المشهد الادبي .

المصادر

- د.كمال عبدالمالك. روايات الدستوبيا العربية . alemaratalyom.com، بلا تاريخ.
- احمد مطر. اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة. القاهرة : دار فروس للنشر والتوزيع ، ٢٠١٢.
- . ويكيبيديا ، ar.m.wikipedia.org. ٢٠٢٥.
- الشخصيات التوكسيك في حياتنا كيفية فهمها والتعامل معها ، alwatanner.net. ٢٠١٧.
- الشخصية السيكيوباتية الأعراض وطرق التعامل، سارة وائل ، alyom7.com. ٢٠١٨.
- د.انجيل بطرس سمعان. دستوبيا توماس مورتر، ط٢ . مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧.
- د.عبدالكريم راضي جعفر . رماد الشعر دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق، ط١ . بغداد : دار الشؤون الثقافية ، ١٩٩٨.
- رشا قاسم فياض العبيدي. السرد الدستوبي في الرواية العراقية المعاصرة ٢٠١٤-٢٠٢٢ . اطروحة دكتوراه ، كلية الاداب جامعة ذي قار ، ٢٠٢٣ .
- غسل الدماغ ،تاريخ جديد للسيطرة على الفكر ،دانيال بيك ، wellcomellection.org. ٢٠١٠.
- ويكيبيديا،، ar.m.wikipedia.org. ٢٠١٠.

Sources

- Dr. Kamal Abdelmalek. Arab Dystopian Novels. alemaratalyom.com, no date.
- Ahmed Matar. Poems of Ahmed Matar: Complete Works. Cairo: Dar Forous Publishing and Distribution, 2012.
- . Wikipedia, ar.m.wikipedia.org. 2025.
- Toxic Personalities in Our Lives: How to Understand and Deal with Them, alwatanner.net, 2017.
- The Psychopathic Personality: Symptoms and Ways to Deal with It, Sarah Wael, alyom7.com, 2018.
- Dr. Angel Boutros Samaan. Thomas More's Dystopia, 2nd ed. Egypt: The Egyptian General Book Organization, 1987.
- Dr. Abdulkarim Radi Jaafar. Ashes of Poetry: A Study on the Subjective and Artistic Structure of Modern Sentimental Poetry in Iraq, 1st ed. Baghdad: Dar Al-Shu'un Al-Thaqafiya, 1998.
- Rasha Qassem Fayyad Al-Obaidi. Dystopian Narrative in Contemporary Iraqi Novels 2014-2022. PhD Dissertation, College of Arts, University of Thi-Qar, 2023.
- Brainwashing: A New History of Thought Control, Daniel Beck, wellcomellection.org, 2010.
- Wikipedia, ar.m.wikipedia.org, 2010.